# الخصائص العقلية لحضارة الإسلام

د.عبد الحميد غانم

# الخصائص العقلية لحضارة الإسلام

## توطئة

### أولاً) وحدة المبدأ والغاية والمآل

### ثانياً) وحدة الحق والحقيقة

### ثالثاً) إدراك السُّنَن الإلهية

# توطئة

تتسم حضارة الإسلام بضوابط تجمع بين منظومة النقل الصحيح، وقواطع العقل الصريح لصناعة عمارة مخصوصة بسِمات الإسلام، ورعاية مسيرتها من المنبع حتى المصب:

* **بدءاً بوحدة المبدأ والغاية** التي تربط سداد السعي برُشْد الوعي.

* **واعتباراً بوحدة الحق والحقيقة** التي تزن منظومة الوعي الرشيد بالسعي السديد بمعيار الحق.

* **وانتهاءً بوحدة المآل** التي تصل ذلك الوعي والسعي بمعيار الجزاء.

* **وتحقيقاً لوحدة السُّنَن الإلهية الكونية والشرعية** باعتبارها القوانين المنظمة لحركة الإنسان والحياة.

وهنا يلتقي **العقل الصريح والنقل الصحيح**، ويتصل **الوعي الرشيد بالسعي السديد**، وتقترن **علوم التيسير** من الوحي **بعلوم التسخير** في الكون، فيتحقق العمران الذي يريده الله، وهي دعوة كل نبي من **آدم** إلى **محمد بن عبد الله** ﷺ.

وإذا كانت حضارة الإسلام قد ارتبطت بخصائص عقلية تشمل الحياتين الدنيا والآخرة، فإن سِر ذلك يرجع إلى أن الإسلام نظام غيبي شهودي، وأنه لابد أن يتكامل هذان البُعْدان في العقل المسلم لتصح حركة الحياة كما يريدها الله.

ولما كان الإنسان قد جاء من الغيب، ثم هو راجع إليه بعد حين ليُسأل عن دوره في عالم الشهادة، فقد قال تعالى ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ الأحزاب ٨ (١) وجمع إلى ذلك الحث على النظر في عالم الشهادة، فقال تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ الملك ٣ (٢)

---

(١-٢) وانظر: المائدة ٤٨، الأنعام ١٦٥، الأعراف ١٢٩، الطلاق ١٢،
تنوير المقباس ١/ ٣٥١ و٤٧٩، تفسير مجاهد ٢/ ٥١٤،
تفسير الطبري ٧/ ١٥٩، ٢١/ ١٢٦، ٢٩/ ٢، تفسير الزمخشري ٤/ ١٣٤،
تفسير ابن الجوزي ٦/ ٣٥٦، ٨/ ٣١٩،
تفسير القرطبي ٧/ ١٦٤، ١٤/ ١٢٨، ١٨/ ٢٠٩،
تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨ و٤٧٨ ، ٤/ ٢٢٣و٣٩٧ ،
تفسير الشنقيطي ٧/ ٤٢٣، ٨/ ٢٣٠

فصار الإسلام رسالة حضارية من نوع مخصوص، يُعنَى بتقديم المثال لما يمكن أن تكون عليه حالة التفاعل بين: الغيب والشهادة، والعقل والنقل، والحس والبرهان، والفطرة والكون، بدءاً من صحة الوعي قبل أن تتحقق في ميادين السعي.

وليس من الممكن أن يتم ذلك دون التَّحَلِّي بمنظومة الخصائص العقلية التي تضم هذه **الثلاثية: وحدة المبدأ والغاية والمآل، ووحدة الحق والحقيقة، ووحدة إدراك السُّنن الإلهية، وذلك على النحو التالي:**

# أولاً) وحدة المبدأ والغاية والمآل (١)

يؤكد الوحي على **وحدة المبدأ والمآل** فيقول ﴿ **وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ** ﴾ الأنعام ٩٤ (٢) ويؤكد على **وحدة الغاية**، فيقول ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ الذاريات ٥٦ (٣)

فيرتب للوعي المسلم **موقعه من الحياة، والغاية منها، والمآل بعدها** فيقرر له **الكرامة العامة** والرزق من أول الخَلْق، فيقول ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ﴾ الإسراء ٧٠ (٤)

ولذلك زوَّده بالفطرة، وجعلها مَرْجِعِيَّة قَبْلِيَّة تدله على الحق فيُمَيِّز بها بين الخير والشر طالما اجتهد في الحفاظ عليها نقية (٥)

---

(١) مبدأ الشيء هو أوله ومادته التي هو منها، ومآله هو منتهاه الذي يصير إليه.
انظر: القاموس المحيط ٤٢و١٢٤٤، المعجم الفلسفي ٢/ ٣٢٠

(٢) وانظر: المؤمنون ١١٥ (٣) وانظر: النجم ٣٨-٤٢

(٤) وانظر: التين ٤، تفسير ابن الجوزي ٥/ ٦٢-٦٣، تفسير القرطبي ١٠/ ٢٩٣، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٥، فيض القدير ٥/ ٢٩٨ (٥) انظر: الروم ٣٠

ورفعه بالعقل فوق رُتَب المخلوقات (١) ومَهَّد الكون لسعيه تحقيقاً للغاية من خَلْقه، ورَتَّب خَلْقه في سُنَن وأطوار قدَّرها تعالى على نظام جَلِي ومُحْكَم، فجاء خلقه على الاستواء والاعتدال في أحسن تقويم (٢)

وأمَدَّه بنعمة النظر والتدبر والاعتبار، وأمره باستثمارها، فقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾النساء ٨٢، فصار النظر والتدبر مدداً إلهياً يهدي العقول عند تناول المَحارات إلى سبيل الإيمان والاعتبار.

وخَطَّ له من **قطعيات الوحي الدلالية وظنياته الدلالية** ما يجمع حقائق الغيب إلى حقائق الشهادة، فيحقق التكامل بين مَدَد الوحي وفاعلية العقل وميدان الكون وجديد الحياة.

وهكذا تناول الوحي موضوع الإنسان على أنه مخلوق مخصوص، وكُلٌّ متساند من جُملة حقائق تنتظِمها قوانين الفطرة وحاجات البدن وأشواق النفس ومعارِج الروح، فخاطبه في كل واحدة منها على السواء، بحيث اجتمعت للإنسان تلك المنظومة بتلازمها وتمامها.

---

(١) انظر: الرحمن ١-٤

(٢) وانظر: الانفطار ٦-٨، البلد ٨-١٠

وبقدر ما عَدَّه كُلًّا في ذاته طالَبَه بأن يكون تَعَدُّداً متجاوباً مع غيره فألَـحَّ على تمام **وحدة الخَلْق، ووحدة الدور، ووحدة المآل** ليعلم أن كل المخلوقات مجبولة على امتثال المرادات الإلهية، وأن عليه ألا يقل عنها في ذلك؛ لأنه الخليفة المكلف في الحياة بحالها، فيدرك الغاية من الخلق، والغاية من الوحي وهي **وصل المبدأ بالمآل من طريق سياسة الحياة وَفْق طاعة الله على قانون العلم والقدرة، بحيث لا يكون جانب العلم ضعيفاً فلا يسود، ولا يكون جانب القدرة جاهلاً فيسود.**

ولعل هذا الازدواج بين العلم والقدرة هو سِر خيبة تناوُل المسلمين للإسلام منذ رحل عصر الرُّشْد إلى الآن، ولذلك نبَّه الله على ارتباط الخَلْق بالعلم بالقدرة، فقال تعالى ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا** ﴾الطلاق١٢ (١)

فكان من تمام الحكمة أن جعل الله سبحانه من أسباب الخَلْق وإنزال

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/ ١٥٥، تفسير الزمخشري ٤/ ١٢٤،
تفسير القرطبي ١٨/ ١٧٦، تفسير ابن الجوزي ٨/ ٢٩٩وبعدها،
تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٠-٤١١

الوحي حيازة العلم والقدرة، وشَرَط لدوام صحة الحياة على سنن الطاعة اجتماعهما في عموم المكلفين، فإنْ حدث ذلك فسوف تصح الحياة كما يريدها الله في قوله تعالى﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾الذاريات ٥٦ (١)

ولا شك في أن تنافس المكلفين في التحقُّق برُتَب التلقِّي والفهم والامتثال التي شرعها الله سوف ترتب تكيُّفاً فاعلاً مع الحياة وَفْق مراداته سبحانه، بحيث تبقى لقِيَم الخير ومفاهيم الشر معايير ثابتة ومعالم واضحة وأساليب بيِّنَة يميز المسلم بها بين ما يأخذ وما يدع، فيظل ماثلاً في وعيه وسعيه **أن الخَلْق كله: متحد المصدر والغاية والمآل** لقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾الأعراف ٥٤، بقدر ما يبقى مفهوم السببية والإرادة والتوكل واضح المعالم، حاضر الأدوار في حياته.

---

(١) تفسير الزمخشري ٤/ ٢١، تفسير ابن الجَوْزي ٨/ ٤٢،
تفسير ابن كثير ٤/ ٢٥٥

الأمر الذي يجعل من كل مسلم بناءً صحياً في حركة الحياة، سعياً بها نحو غاياتها على ما يقضي نظام الخالق جلَّ في علاه، وتحقيقاً لما قرَّره سبحانه في قوله ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾النمل ٨٨ (١)

ومن هنا يظل ذلك المسلم على وعي رشيد وسعي سديد بحقائق الحضارة في الإسلام، وكيفيات تناولها واستثمارها، ودعوة الناس إليها، وكيف يجب أن تدوم **بحيث**:

**تكون** منظومة القِيَم هي مُحدِّدات القرار ومعايير التفاضل التي تدعو كل مسلم إلى أقصى البذل على قدر الوُسْع وإنْ قَل، فيتمايز المسلمون فيها على مقادير العطاء والجهد.

**ويكون** سُلَّم الاهتمامات هو نظام القيم الذي يوصل إلى معاني الحق، ويدل على سُبُل البِر، ويحقق معنى الحُسْن الذي يريده الله.

**وتكون** الثقافة سَلَّة موضوعية منسجمة من المعتقدات الصحيحة، والأفكار الرشيدة، والآراء الصائبة، والأفعال السديدة.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٢١، تفسير ابن الجوزي ٦/ ١٩٦،
تفسير القرطبي ١٣/ ٢٤٣، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩٠

**ويكون** العلم دالاً على الإيمان؛ لأنه النشاط الكاشف عن سنن الله الشرعية والكونية، والمُفَسِّر الموضوعي لحركة الحياة.

**وتكون** حضارة الإسلام متلازمة من الوعي والامتثال والبلاغ الذي يحول المعاني الكبرى إلى وحدة من الحقائق السائدة في الحياة (١)

---

**(١) تجديد الفكر الإسلامي د.محسن عبد الحميد ١١١ وبعدها بتصرف،**

**أزمة العقل المسلم د.عبد الحميد أبو سليمان ١٠٩ وبعدها بتصرف**

# ثانياً) وحدة الحق والحقيقة (١)

الوحي كلمة الله الخالدة التي تدلنا على اتصال الغيب بالشهادة، وتجعل لعالم الغيب يقيناً في الصدور، وتجعل لعالم الشهادة معنى وقيمة وغاية، وتؤكد أن العقل هِبَة إلهية شريفة ينال بها الإنسان مقام التَّلَقِّي عن رُسل الله ليَشْرِع في الامتثال والأداء والإقامة على شروط الخلافة والعمارة والكرامة، عارفاً بما ينتظره في عالم الغيب من جزاء، ثم تقرر عجز طاقات العقول عن إدراك طلاقة القدرة الإلهية.

وحين يدرك المسلم ذلك، فسوف تتكامل في وعيه منظومة جامعة بين جلال الوحي برَحابة الكون، ومقام العقل بحُسْن الدور، وحتمية البعث بضرورة الجزاء فيعمل عن حبٍ وطاعة، ويُقايس نسبية الحقائق بمعيارية الحق، ويقرأ الحياة بالوحي، ويعمل فيها بوعي وهو على يقين **أن** الحق يجب أن يملك القوة، **وأن** القوة يجب أن تحمي الحق، **وأن** الحق يبصر طريقه وحده، **وأن** كل حقيقة تحترم الحق تستحق أن ننحاز إليها.

---

**(١) الحقيقة هي الشيء الثابت المستقر المقابل للمجاز. وأما الحق فهو مطابقة الواقع للحكم الصحيح، وضده الباطل. انظر: القاموس المحيط ١١٢٩، التعريفات ١٢٠-١٢١، المعجم الفلسفي ١/ ٤٨١و٤٨٥**

وحين يتناول العقل ذلك الدور، فإنه يُقِرُّ لله بالوحدانية مُسَلَّمَةً فطرية، فتتضح في وعيه وحدانية الحقيقة والحق، ويرى كيف سخَّر الله الكون له ليتفرغ لدوره القُدُسي في طاعة الله كما شَرَع.

ويؤمن **بأن** مفهوم الخلافة منوط بحَرَم المسؤولية، فيسعى إلى تَحَرِّي الحقيقة على نظام الحق وحده، ويوظِّفها للإعمار وهو مطمئن إلى **أن** منظومة السُّنن الشرعية والكونية هي أدواته الطَّيِّعَة لصناعة الحياة، **وأن** المقصد من دوره هو ابتلاء إرادته على شروط الخلافة التي أرادها الله، **وأن** الآخرة هي المحصلة الجامعة لآثار ذلك الدور الكبير.

إن ذلك يدلنا على أن طلب الحقيقة بمعيار الحق هي فطرة ناصعة قد جَبَل الله كل إنسان عليها ليصله بالمقصد الكلي من الخلق، فيعمل في الحياة بسعي يرعاه وعي متصل بالوحي فتصير كل حركاته عبادة.

ولما كان العقل المسلم يبصر بأنوار الوحي، فإن الحقيقة لديه ستبقى نشاطاً معرفياً يستحق تَحَرِّيه، بقدر ما تبقى أمراً موضوعياً يدرك قيمته ودوره، فيتفاعل معه **عارفاً** آثاره؛ لأنه عنصر فاعل في أشواقه الفطرية، **ومدركاً** دوره في إحداث التوافق السَّوِي مع الغاية من الخلق.

وبهذا المفهوم الحضاري يتبوَّأ المسلم رُتْبَة الخلافة عن الله في الحياة، فيجمع بين الحق والحقيقة جمعاً يراعي نِسَب الموقع والعصر والرؤية والممارسة، فيفرِّق في المناهج والتعامل على مقادير المُواضَعات، فما يليق بالصغير لا يليق بالبالغ، وما يناسب العالم لا يناسب الجاهل، وما يصلح للسلم لا يصلح للحرب.

ثم على المسلم بعد ذلك أن يعلم أنه لا يدرأ عن الإسلام إلّا حُسْن فهمه، وتدبُّر مقاصده، واعتبار آثاره والوقوف عند حقائقه التي هي حق، امتثالاً لقوله تعالى ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فصلت ٤٢.

فالإسلام هو **الحضارة الكاملة** التي أرادها الله من خلق الإنسان، ولذلك أمره أن يعمل في الحياة على مقتضاها لإقامة الحق ونشره ورعايته، ومن ثَمَّ وصفها سبحانه بقوله ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ الإسراء ١٠٥ (١)

---

(١) وانظر: الأعراف ٥٢، تفسير ابن الجوزي ٥/ ٩٦، ٧/ ٢٦٢، تفسير ابن كثير ٣/ ٧٢، ٤/ ١١١، تفسير السعدي ١/ ٤٦٨

ومِن هنا يبقى الفكر الحضاري في الإسلام رَحْباً متوازناً وعياً وامتثالاً بين وحدة الحقيقة التي لا تقوم الحياة إلا بها، وبين وحدة الحق التي لا تصح الحياة إلا بها.

وتبقى وحدة الحق والحقيقة في المفهوم الحضاري للإسلام منظومة **قادرة بالقوة والفعل** على الجمع بين عناصر الكون وحركة الإنسان وَفْق مقاصد الوحي وهداياته، فيقرأ كتاب الكون بتَمَعُّن، ويقرأ كتاب الوحي بتَدَبُّر، **تحقيقاً** للأمر الإلهي الخالد ﴿ **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ العلق ١-٥، **وامتثالاً** للقرار الإلهي الكامل ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ** ﴾ النجم ٣٩-٤٢ (١)

---

(١) تفسير الزمخشري ٤/ ٣٣و٢٧٠،
تفسير ابن الجَوْزي ٨/ ٨٠-٨٢، ٩/ ١٧٥-١٧٦،
تفسير ابن كثير ٤/ ٢٧٦و٥٦٤، دقائق التفسير ابن تيمية ٢/ ١٩٥،
تفسير السعدي ١/ ٨٢٢ و٩٣٠، أزمة العقل المسلم ١٣٦وبعدها

# ثالثاً) إدراك السُّنَن الإلهية

١) منظومة السنن الإلهية بين المفهوم والدور

٢) السنن الإلهية في القرآن الكريم

٣) أنواع السنن الإلهية

٤) السنن الإلهية واستخلاف الإنسان في الأرض

٥) السُّنَن الإلهية وصناعة الحضارة

# ١) منظومة السنن الإلهية بين المفهوم والدور

السُّنن الإلهية هي جملة القوانين المُطَّرِدة، والأسباب المؤثرة، والطرق المعتبرة التي أرادها الله تعالى لتحقيق طاعته في الكون، وبيان حكمته من الخَلْق، ولذلك يجب على كل مسلم أن يجتهد لإدراك (١) هذه السنن التي وصفها الله بقوله ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾الأحزاب ٦٢ (٢)

ولقد ورد التصريح بها في القرآن **خمس عشرة مرة** (٣) باعتبارها منظومة مُحْكَمَة من السُّبُل والمقاصد الإلهية التي لا تُحابي أحداً لذاته، ولا تتغير وإنما تُغَيِّر، وتملك **القوة بالقدرة** على أن تربط الفعل بآثاره، وتصل المُسببات بأسبابها، وترتِّب الجزاء على العمل.

---

**(١) الإدراك هو: الوقوف على حقيقة الأشياء والإحاطة بها قدر الطاقة. انظر:**
**تفسير الطبري ٧/ ٣٠٠، تفسير القرطبي ٧/ ٥٤، ١٤/ ٢٩، ٢٠/ ١٧٦،**
**دقائق التفسير ابن تيمية ٢/ ١٢٦، ٣/ ١٤٩، التعريفات ٢٩،**
**التعاريف ١/ ٣٣٦، لسان العرب ١٠/ ٤٢١، المعجم الفلسفي ١/ ٥٣**

**(٢) أحكام القرآن الجَصّاص ٥/ ٢٤٦، تفسير ابن الجوزي ٦/ ٤٢٣،**
**تفسير القرطبي ١٤/ ٢٤٧، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٢٧، تفسير السعدي ١/ ٦٧٢**

**(٣) تفسير وبيان مفردات القرآن د.الحِمْصي ١١٤**

فكان **مَنْ** عرف كيفيات التعامل مع تلك السنن تفوَّق ولو كان كافراً، **ومَنْ** تنكَّبها خسر ولو كان مؤمناً، لكن هذه السُّنَن لا تحقق آثارها المعنوية والمادية بتمامها حتى تجتمع مقاصدها مع سُبُلها.

وعلى هذا يَتَخَرَّج إخفاق المسلمين في أواخر غزوة **أُحُد ٣هـ** عند قوله تعالى ﴿**أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾ آل عمران ١٦٥.

ويَتَخَرَّج إخفاقهم مطلع يوم **حُنَيْن ٨هـ** عند قوله تعالى ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ**﴾ التوبة ٢٥-٢٦ (١)

ولذلك فإن **فهم منظومة السنن الإلهية يقتضي صحة القراءتين: قراءة معارف الوحي من خلال فهم مقاصده وتذوق هداياته، وقراءة**

---

(١) تنوير المقباس ١/ ٦٠و١٥٦، تفسير الطبري ٤/ ١٦٥وبعدها، ١٠/ ١٠٣، تفسير ابن الجوزي ٣/ ٤١٣، تفسير القرطبي ٤/ ٢٦٥، ٥/ ٢٨٦، ٨/ ١٠٠، تفسير ابن كثير ١/ ٤٣٤، ٢/ ٣٥٦-٣٥٨، تفسير السعدي ١/ ١٥٦و٣٣٣

**معارف الحياة بقوانينها وأدلتها لصنع الدنيا على عين الدين (١)**

ومن هنا تقوم حضارة الإسلام على فهم الوحي، وفهم السنن الإلهية، وفهم الحياة، والجمع بين الوسائل الشريفة والمقاصد النبيلة لتحقيق الإقبال والنهوض في مقابل الإدبار والسقوط.

وهو المنهاج الذي جمع معارف الوحي وجديد الحياة فوضع العقل المسلم عند شروط التدبر من واقع **قَطْعِيّات دلالية ضابطة، وظَنِّيّات اجتهادية واسعة** خطَّها الوحي بذاته **للحث على السير والنظر والتأمل**

---

**(١) انظر: إبراهيم ٣٢-٣٣، النحل ١٢، الحج ٦٥، لقمان ٢٠، الجاثية ١٢-١٢، القمر ١٧، وأرجو مراجعة:**

**تنوير المقباس ١/ ٤٢٠و٤٤٩، تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٢١٢، تفسير الطبري ٢٢/ ٦٥و٥٨٤، ٢٥/ ١٤٣وبعدها، ٢٧/ ١٠٠وبعدها، تفسير ابن عطية ١/ ٣٨، تفسير القرطبي ١/ ٢٥١وبعدها، ١٦/ ١٦٠، تفسير ابن عجيبة ٧/ ٣٧٦وبعدها، تفسير الثعالبي ١/ ٩، دقائق التفسير ابن تيمية ٣/ ٢١، تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٣، ٤/ ٢٦٥، تفسير البقاعي ٥/ ٦٢٨، ٧/ ٩٥و٣٧٢، ٨/ ٢٠٦، تفسير حَقِّي ١٠/ ١٨٢، تفسير الشربيني ٣/ ١٥٣، ٤/ ٩٩، تفسير ابن عاشور ٢٧/ ١٩٠، تفسير الشوكاني ٥/ ٨و١٧٥، تفسير السعدي ١/ ٧٤و٤٤٢و٧٥٥و ٧٧٦، تفسير الشنقيطي ١/ ٣٢٣، ٢/ ٢٦٤-٢٦٥و٣٤١، ٥/ ٢٦٠، ٧/ ٢٦٣**

وأرشد إليها قول الله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾الحج ٤٦، ورَغَّب في التسليم بها عن فهم، والامتثال لها عن برهان، والسعي لها عن وعي تحقيقاً لقوله تعالى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾الملك ١٤ (١)

وإذا كانت صناعة الحضارة لا تصح دون موافقة سُنَن الله، فإن الجهل بهذه الموافقة لن يحول دون قيام حضارة، وإنما سيمنع صلاحها لأن الصلاح لا يستقيم مع معصية الله.

ولذلك لم يُنكر الله تعالى على الحضارات الوضعية أسبابها وآليَّاتها وإنما أنكر عليها غاياتها، فقال ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم

---

(١) تنوير المقباس ١/ ٢٨١، تفسير الطبري ١٧/ ١٨٢، ٢٦/ ٢٨، ٢٩/ ٦، تفسير القرطبي ١٢/ ٧٧، ١٣/ ٢٥٥، ١٦/ ٢٠٨، ١٨/ ٢١٤، تفسير ابن كثير ٣/ ١٧١و٢٢٨، ٤/ ١٦٣و٣٩٨

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ الأحقاف ٢٦ (١)

**ثم كانت طامَّة الآخَر أنه بعد الحيرة والمخالفة أدمن النظر في ذوات الأشياء وأحوالها وعِلَلِها، لا في أدوارها وآثارها، فوقع في ورطة عقلية انحرفت به عن دوره، وتركته أسير السؤالين القديمين: كيف جاء الخَلْق، ولماذا جاء ؟** ثم لم يقبل جوابات الوحي عن **كيفية الخَلْق** عند قول الله تعالى ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ الكهف ٥١، ولا هو اكتفى بجوابات الوحي عن **عِلَّة الخَلْق** عند قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ الذاريات ٥٦ (١)

ولقد أدى هذا الانحراف الكبير إلى **إفساد الإحساس بالقيمة، وإفساد**

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ١٨٢، ٢٦/ ٨٨، تفسير القرطبي ١٢/ ٧٧، ١٦/ ٢٠٨، تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣٥، ٣/ ٢٢٨و٥٤٣-٥٤٤، ٤/ ٧٧، الأنعام ٦، الروم ٩

(١) تنوير المقباس ١/ ٤٤٢، تفسير الثوري ١/ ٢٨٢، دقائق التفسير ١/ ٥٢٨، تفسير الطبري ١٥/ ٢٦٣ ، ٢٧/ ١٢، تفسير القرطبي ١١/ ٢، ١٧/ ٥٥، تفسير ابن كثير ٣/ ٩٠، ٤/ ٢٣٩، تفسير الشنقيطي٣/ ٢٩٤، ٧/ ٤٤٤، ٨/ ٤٤٨ تفسير السعدي ١/ ٤٥و٢٦٨و٣٧٧و٤٨٠و٨١٣

**الاعتراف بالموقع، وإفساد الإيمان بالدور، وإفساد العلاقة بين الإنسان والحياة**، وهو ما يُسَمَّى في أدَبِيَّات الحضارة **بالسقوط الحضاري؛ لأن الحضارات تنهار من داخلها أولاً**.

ومن هنا فإن الواجب يقتضي: **صحة الوعي بالسنن الإلهية، وصحة الوعي بالسنن الكونية، وصحة السعي لموافقة السنن الإلهية، وصحة استثمار السنن الكونية؛ لأن** الكسل سبيل للخسران، **ولأن** الجهل سبيل للإنكار، ولأنهما معاً سبيل للعجز والكفران.

ولذلك جاء في النَّكير على آفة الجهل بالسنن الإلهية ﴿**بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ يونس ٣٩، وجاء في النَّكير على آفة الجهل بالسنن الكونية ﴿**سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ**﴾ فصلت ٥٣ (١)

---

(١) تفسير الطبري ٢٥/ ٤-٥، تفسير القرطبي ١٣/ ٢٤٦، ١٥/ ٣٧٤، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٠و٤٠٩ ، ٤/ ١٠٦، تفسير السعدي ١/ ٢١٧و٧٥٢، تفسير الشنقيطي ٦/ ٣٧٦

فإنْ حاز المسلم رُتَب الصحة في الوعي والسعي والاستثمار فقد حاز الصلة بين القول والقصد، والاعتقاد والسلوك، والوعي والسعي.

والواقع أن تلك الصلات لن تتحقق دون أن نحسن التمييز **بين** السُّنَن **الإلهية** ـ وهي **حاكمة** في ذاتها ـ **وبين** السُّنَن **الكونية** ـ هي **حتمية** في ذاتها ـ **وبين** السُّنَن **التاريخية** والسنن **الاجتماعية** ـ وهي **اختيارية** في ذاتها ـ **وبين** وصف الظاهرة وتحليلها وما ينبغي أن تُوَظَّف له.

فلما لم يتحقق ذلك التمييز على وجهه جاء فقه المسلمين بسنن الحضارة الإلهية دون دعوة القرآن الكريم إلى النظر في شروطها، وفي سنن قيام الحضارات ومَيْلها، وهي دعوة طالت ثلثي القرآن كله.

ثم تعاظَم اشتغال المسلمين بعلوم الكلام والجدال والفروع والخلاف والتصوف والتفلسف على حساب صيانة الإنسان ـ وهو محور الحضارة ووقود الحياة ـ فلم ينتبهوا إلى **أن** العلم نقطة كَثَّرها الخلاف، **وأنه** إذا سكت مَنْ لا يعلم قَلَّ الخلاف، **وأن** المقصود من العلم العمل، **وأن العلم ينادي العمل فإن لَبَّاه وإلا ارتحل** (١)

---

**(١) مختصر إحياء علوم الدين الغزالي ٢٠، الموافقات الشاطبي ١/ ٧٥، موسوعة ابن القيم [ جامع الآداب ] ١/ ١٨٧و٢٠٨**

فلم يفقهوا **وجوب الأخذ بالقرآن كله**، وأنه السبيل للهدى والعلو، قال تعالى ﴿ **هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ** ﴾ آل عمران ١٣٨ (١)

ودل ذلك على أن حالة التبايُن الحضاري بين الأمم، أو بين الفترات الحضارية للأمة الواحدة إنما ترجع إلى آفات: **الانتقائية، والتبعيض، والمبالغة، والتعمُّق**، وما لابد أن يَرْشَح عنها من **كسل** في الوعي بسُنَن التحضر، **وعجز** في الوعي بأسباب النهوض والتقدم، وخَلَل في الوعي بعِلَل السقوط والتأخر، وكيف تبدو العِلَّة في تلك الآفات كلها واحدة، وهي **فقر الجمع بين: صحة الفقه بالوحي، وصحة الفقه بالحياة، وصحة الفقه بالسعي**.

ولذلك جاء نَعَى الوحي على أولئك المُتَنكِّبين طريق الهدى، فقال تعالى ﴿ **قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ**

---

(١) تفسير الثوري ١/ ٨٠، تفسير الطبري ٤/ ١٠١، تفسير ابن كثير ١/ ٤٠٩، أحكام القرآن الجَصّاص ٣/ ١٢٦

أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ طه ١٢٣-١٢٧ (١)

ثم جرت سُنَّة الله تعالى في الناس أن يعاملهم بنوع ما يعملون لعلهم يرجعون، فكان من لطفه أن ما قد يصيب الناس من مَساخِط إنما يرجع إلى بعض أعمالهم، لا إلى كلها، فقال ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ الشورى ٣٠.

وأن الله تعالى لا يصيب الناس بكل أعمالهم وإلا هلكوا جميعاً، فقال ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ النحل ٦١، وقال ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ

---

(١) تنوير المِقْباس من تفسير ابن عباس ١/ ١٥٠و٢٠٦و٢٦٧،
تفسر الطبري ١٠/ ٢٤، ١٣/ ١٦، ١٢١/ ٢٢٥،
تفسير القرطبي ٣/ ١٨٢، ٧/ ١٥٧، ٩/ ٢٩٢، ١١/ ٢٥،
تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢١، ٣/ ١٦٩، فيض القدير المُناوي ٤/ ٧٢،
معتصر المختصر أبو المحاسن الحنفي ٢/ ٢٣١

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ فاطر ٤٥ (١)

ودلَّهم على بعض أسباب العقاب، فقال مُذَكِّراً ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنفال ٥٣ (٢)

وأثبت سبحانه أن الملائكة الكَتَبَة لا يغادرون شيئاً من قول أو عمل حتى يحصوه، فقال ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ق ١٨ ،

---

(١) وانظر: الروم ٤١-٤٢، وأرجو مراجعة:
تنوير المِقْباس ١/ ٢٢٦و٣٦٨و٤٠٩، تفسير الثوري ١/ ٢٦٨،
تفسير القرطبي ١٠/ ١١٩-١٢٠، ١٤/ ١٦،٣٦١/ ٣٠وبعدها،
تفسير الطبري ١٤/ ١٢٦، ٢٢/ ١٤٧، ٢٥/ ٣٠،٣٢/ ٢٦٩،
تفسير ابن كثير ١/ ٥٢٩، ٢/ ٥٠٢و٥٧٤، ٣/ ٩٢و٤،٥٦٣/ ٣٩٩،
تفسير السعدي ١/ ٤٤٣و٦٩٢و٧٥٩و٨٦٩

(٢) تنوير المِقْباس من تفسير ابن عباس ١/ ١٥٠و٢٠٦و٢٦٧،
تفسر الطبري ١٠/ ٢٤، ١٣/ ١٦،١٢١/ ٢٢٥،
تفسير القرطبي ٣/ ١٨٢، ٧/ ١٥٧، ٩/ ٢٩٢، ١١/ ٢٥،
تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢١، ٣/ ١٦٩، فيض القدير المُناوي ٤/ ٧٢،
مُعْتَصَر المُخْتَصَر أبو المحاسن الحنفي ٢/ ٢٣١

وحذر المجرمين فقال ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ الكهف ٤٨-٤٩ (١)

ليعلم كل مكلَّف أنه محاسَب على كل قول وعمل لأنه داخل في منظومة السُّنن الإلهية التي يستدل بها على أن الحياة أمانة، وأن الأمانة خلافة عن الله في الحياة، وأن هذه الخلافة عمارة تامة في ميادين النفس والآخَر والأرض على قانون العبادة حتى تقوم الساعة.

---

(١) أرجو مراجعة: تنوير المقباس ١/ ٢٤٨، تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٨وبعدها، تفسير ابن كثير ٣/ ٨٩وبعدها

# ٢) السُّنَن الإلهية في القرآن الكريم

تنوَّع ذكر السُّنَن الإلهية في القرآن كثيراً بحيث لا يمكن حصرها، وإنما غاية ما يستطيعه المتأمل أن يتناول منها ما يدل على أمهاتها،ولقد اخترت منها ما اندرج تحته ما هو من جنسه، **وذلك على النحو التالي:**

* سُنَّة الوعد من قوله تعالى﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ النحل ٩٧.

* سُنَّة الوعد والوعيد، قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ محمد ١٢.

* سُنَّة الغَلَبَة، قال تعالى ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ المجادلة ٢١.

* سُنَّة النُّكْران، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ

لَشَهِيدٌ ﴾العاديات ٦-٧.

* سُنَّة الاستزادة واليأس، قال تعالى ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾فصلت ٤٩.

* سنة الإعراض، قال تعالى ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ الإسراء ٨٣.

* سُنَّة الندم، قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ الفرقان ٢٧-٢٩.

* سُنَّة الهلع والجزع والمنع، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾المعارج ١٩-٢٢.

* سُنَّة النسيان، قال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا

لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ الزمر ٨.

* سُنَّة الاستدراج والبَغْت والإبْلاس، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام ٤٤-٤٥.

* سُنَّة التَّعَجُّل، قال تعالى ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ الأنبياء ٣٧.

* سُنَّة الاستغناء والطغيان، قال تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ العلق ٦-٧

* سُنَّة البَغْي، قال تعالى ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ الشورى ٢٧.

* سُنَّة القابلية للإيمان والكفر، قال تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا

شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾الإنسان ٣.

* سُنَّة المقابلة بالجزاء، قال تعالى ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾القصص ٨٤.

* سُنَّة التقدير، قال تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾القمر ٤٩.

* سُنَّة طلاقة القدرة والسرعة، قال تعالى ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾القمر ٥٠.

* سُنَّة التيسير، قال تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾البقرة ١٨٥.

* سُنَّة التعارف، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾الحجرات ١٣.

* سُنَّة وحدة الأصل، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾النساء ١.

* سُنَّة الإهلاك، قال تعالى ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾الكهف٥٩.

* سُنَّة حب التملُّك، قال تعالى ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ الفجر ١٩-٢٠.

* سُنَّة التدبُّر، قال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾النساء ٨٢.

* سُنَّة التكذيب، قال تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يونس ٣٩.

* سُنَّة التَّبَيُّن والتثبت، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ

بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ الحجرات ٦.

* سُنَّة البيان والهداية والموعظة، قال تعالى ﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران ١٣٨.

* سُنَّة الإفراط والتفريط، قال تعالى ﴿ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ الكهف ٢٨.

* سُنَّة الاعتبار، قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ الحشر ٢.

* سُنَّة إحسان العاقبة، قال تعالى ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ القصص ٨٣.

* سُنَّة المكر السيء، قال تعالى ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فاطر ٤٣.

* سُنَّة المكر الخَيِّر، قال تعالى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ الأنفال ٣٠.

* سُنَّة العزم، قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة ٦٣.

* سُنَّة الأحسن، قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴾ هود ٧.

* سُنَّة العدل، قال تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ الرحمن ٧-٩.

* سُنَّة الوسطية، قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ البقرة ١٤٣.

* سُنَّة التمكين، قال تعالى ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴾ القصص ٦.

* سُنَّة الصبر والتمكُّن، قال تعالى ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة ٢٤.

* سُنَّة التحذير، قال تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴾ الكهف ٥٥.

* سُنَّة الإعراض، قال تعالى ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ ﴾ الكهف ٥٧.

* سُنَّة المجادلة بالباطل، قال تعالى ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ

وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴾ الكهف ٥٦.

* سُنَّة الاستهزاء، قال تعالى ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الحجر ١١.

* سُنَّة السعي الطيب والسعي الخبيث، قال تعالى ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ الأعراف ٥٨.

* سُنَّة المَنّ، قال تعالى ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ يوسف٩٠.

* سُنَّة الإضلال، قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ محمد ١.

* سُنَّة إحقاق الحق، قال تعالى ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ يونس ٨٢ .

* سُنَّة الابتلاء، قال تعالى ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة ١٢٤.

* سُنَّة النفع، قال تعالى ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الرعد ١٧.

* سُنَّة التغيير، قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنفال ٥٣.

* سُنَّة شكر النعم وكفرها وزيادتها ونقصانها، قال تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ إبراهيم ٧.

وكما تبدو هذه السُّنن الإلهية نظاماً جماعياً مقصوداً، فإنها أيضاً نظام فردي لا تستغني عنه الجماعة؛ لأن حركة الفرد وإنْ تعددت فهي داخلة

في **سُنّة التدافع والاصطبار** (١) بحيث يبقى التدافع وقوداً لحركة الحياة

عند قوله تعالى ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة ٢٥١.

---

(١) وانظر: الحج ٤٠، الأحزاب ٣٨، تفسير الطبري ٢/ ٦٣٣، تفسير القرطبي ٣/ ٢٦١، تفسير ابن كثير ١/ ٣١٠، تفسير السعدي ١/ ١٠٩

وانظر للزيادة ما يلي:

* في سُنَّة رص الصفوف: ( الحج ٤٠ -٤١ )،

*في سُنَن العناد والإمهال والفتنة: ( الإسراء ٧٦-٧٧ )،

*وفي سُنَن اللعن والتقتيل والإغراء: ( الأحزاب ٦٠-٦٢ )،

*وفي سُنَن الاتِّعاظ والإخسار والجهل والبأس والضَّرْع والفرح الكاذب(غافر ٨١ )،

*وفي سُنَّة تكذيب الجديد من القول والعمل: ( يونس ٣٩ )

# ٣) أنواع السُّنَن الإلهية

يقول الواقع إن نظام السُّنَن الإلهية يطول القرآن الكريم كله، كما يطول الكون كله، ولعل ذلك يحرك هِمَّة عقلاء هذه الأمة إلى وضع منظومة منهجية تتناول أنواع الدراسات السُّنَنِيَّة، فتقرأ مقاصد الوحي ومعارفه، وتقرأ قوانين الكون ووسائله لتربط الحياة بالوحي ربطاً يعيد الحياة إلى بارئها إقراراً بقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ **الأعلى ٢-٣ (١)**

الأمر الذي يوجب الجمع بين جهود العلم بالوحي، وجهود العلم بالعصر كي يحيا العصر في رعاية الوحي وتسديده.

ولا أعتقد أن شيئاً ما سيكون في موضعه الصحيح دون تحقيق تلك المنظومة التي يجب أن تبدأ بالعلم بالسُّنَن الإلهية في أنواعها الأصلية والفرعية في الفرد والجماعة معاً، والعلم بالعصر ومتغيراته.

وإن المتدبر للقرآن الكريم بشروطه سيرى كيف تنوعت سُنَنُه، ثم

---

**(١) تفسير الطبري ٣٠/ ١٥١، تفسير القرطبي ٢٠/ ١٦،**
**تفسير السعدي ٩٢٠**

تكاملت، فكونت منظومة **شاملة وعامة وكلية وجزئية وقطعية وظنية وجبرية وإرادية وشرعية وكونية وظاهرة ومستنبطة**، وبَدَت قادرة على استيعاب واقعات الحياة كلها، واستقبال نوازلها وجديدها.

ولقد وقفت على جُمَلٍ من هذه السنن الإلهية، وقسمتها في صور شملت: **السُّنَن الغيبية، والسنن الكونية، والسنن الجارية، وسنن التنوع والتغير والتبدل**، وجاء ذلك على **النحو التالي**:

# ا) السُّنَن الغيبية ( سُنَن البَغْت )

هي **سنن تنبيه وإيقاظ وتهيئة وإرشاد،** جاءت لتعين عموم الناس على قراءة أحوال الغيبيات، وأخبار الفتن والملاحِم، وأشراط الساعة، وعلامات آخر الزمان، بالقدر الذي تسمح به دلالات الوحي.

ولذلك فهي تقف بنا على شروط الإيمان وطرق تحقيقها، وتحفظ علينا حَرَم اليقين بالغيب والتصديق بالبلاغ، والتوكل عن وعي من طريق الأخذ بالأسباب، والتفويض في النتائج، والتسليم بالقضاء.

ومن هنا فليس المطلوب منَّا التعمق فيها ولا التَّعَنِّي لإدراكها، وإنما المطلوب النظر إليها على قدر طاقات العقول، باعتبارها سُنَناً مقصودة ضمن خُطَّة الله لعمارة الحياة، وإيقاظ النفوس وتذكيرها لتبقى على تَرَقُّب وتأهُّب واتِّعاظ واعتبار لما ينبغي أن تكون عليه القلوب عند تلقِّيها العلوم، وامتثالها للتكاليف، وشروعها في العمل.

# ب) السُّنن الكونية ( سُنَن التصريف)

هي **سنن حتمية الوقوع** تشتمل على: **بيان** عظمة الله تعالى في الخلق والتقدير، **والدلالـة** على أحوال الإنشاء الإمداد والتغيير والإهلاك،

**والهداية** إلى وجوب تناوُل الأسباب بسعي ووعي وتفويض.

فهي سنن حاكمة لا تُحابي أحداً، وإنما تبين للناس حكمة الله تعالى في الكون وقدرته على كل شيء، وتوجب عليهم التدبُّر قبل التسليم، بحيث يمكن لكل عاقل أن يحس آثارها، ويعي مقاصدها، ويعمل بها.

## ج) السُّنن الجارية ( سُنن التَّدَرُّج )

هي **سُنَن دائمة ولازمة لقيام الإنسان بأمانة الخلافة** في الحياة وَفْق مَحَاب الله، ولذلك أمرنا الله بتدبُّرها لتعظيم منافعها، وتَجَنُّب مَضارِّها، وهي تضم: **أسماء الله وصفاته، وأحوال الفِطْرة، والبَث والتصريف ، والهداية والتكليف،والوعظ والبيان، والبلاغ والتذكير، والفهم والتأثير، والنظر والتفكير، والدلالة والرعاية، والمداولة والاعتبار، والقابلية والتيسير، والتعاون والتكامل، والإفراط والتفريط، والغُلُو والتقصير، والوعد والوعيد، والتنافس والصراع، والحزن والسرور، والإسعاد والإشْقاء، والجهل والإنكار،والمعارضة والمعاندة، والأسف والانتقام، والنهوض والانكفاء، والوقاية والسقوط، والإعذار والإنذار،والإمهال والإخسار، والعز والذل، والمكر الخَيِّر والمكر السيء، وخوف الفقر**

**وحب المال، والتدمير والإعمار، والاستغناء والطغيان، والتخويف والإرهاب، والتأييد والخذلان، والنصر والهزيمة، والنجاة والإهلاك، والبأساء والضَّرَّاء، والكيد والإملاء، والعقوبة والابتلاء، والأخذ والبَغْت، والتسليط والاستئصال، والتمكين والاستبدال، والمكر والاستدراج، والفتنة والتمحيص، والتوبة والاستغفار، والتضرُّع والاهتداء، والحساب والجزاء.**

## د) سُنَن التنوع والتغير والتبدل

هي **سنن تبعيَّة** تلتحق بما سبقها من السُّنن الأصلية لتطول أحوال الإنسان بين: **الاستزادة، والنكران، والندم، واليأس، والقنوط، والهلع، والتولي، والتعجل، والمقابلة، والزيادة، والعزم، والعدل، والتوازن، والإعداد، والتداوُل، والتجدد، والتثبت، والتغلب، والأسف، والمَقْت، والإضلال، والتعذيب،والتغيير، والنفور،والكِبر،والاستهزاء، والفتنة، والتقتيل، واللعن، والإغراء، والاتعاظ، والصَرْع، والبأس، والفرح الكاذب، والمصير**، ونحو ذلك.

# ٤) السُّنَن الإلهية واستخلاف الإنسان في الأرض

لما كان من أخطر عِلَل الانهيار في الفرد والجماعة أن الصلة بين صغائر العِلَل وعظائم النتائج قد تبدو غير منظورة، فقد حذَّرنا رسول الله ﷺ من " **مُحَقِّرات الذنوب** " (١) لأن الصغائر وإن بَدَت يسيرة وخَفِيَّة، فإن من طبائع الأشياء أن ما دَقَّ استعصى، وما لَطُفَ عَنُف.

ولقد أثبت القرآن ذلك، فقال تعالى ﴿ **إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ النور ١٥-١٧.

كما أثبت القرآن أن الأمم التي هانت ذنوبها في نظرها قد أُبيدت ببغيها، فقال تعالى ﴿ **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن**

---

(١) صحيح البخاري باب ٣٢

كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾العنكبوت ٤٠ (١)

وأتى على أشباههم ببيان عِلَّة الإهلاك، فقال ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾الروم ٤١ (٢)

ثم كان من تمام الرحمة أن بعث الله لكل أمة رسولاً، فقال﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ النحل ٣٦.

فإذا لم يعتبروا بما أصابهم أخذهم بفتنة الضَّرّاء، فقال مُذَكِّراً﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾الأعراف ٩٤.

ثم أخذهم بفتنة السَّرّاء، فقال مُحَذِّراً﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم

(١-٢) وانظر: الشعراء ١١٩-١٢٠و١٥٨، فصلت ١٥، وأرجو مراجعة: تفسير الطبري ١٨/ ٩٩وبعدها،٢٠/ ١٥٠ ،٢١/ ٤٩، تفسير السعدي ١/ ٥٦٣و ٦٣١و٦٤٣ ، تفسير الشنقيطي ٥/ ٤٦٤وبعدها، ٦/ ١٥٩و١٧٣وبعدها

﴿ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ الأعراف ٩٥ (١)

ولما كان العدل أساس الحضارات وسر قوتها وضمان طول بقائها، فقد جاء **النهي الأول** للإنسان الأول ـ آدم عليه السلام ـ عن **جنس الظلم**؛ لأن أدنى الظلم ناقل بطبيعته عن مقتضى العبودية ـ أي لزوم طاعة الله في الأمر والنهي ـ ومُزَحْزِحٌ لصاحبه عن تَحَرِّي العدل، ومُجَرِّئٌ له على إلْف التجاوُز، قال تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة ٣٥ (٢)

وكما جاء **النهي الأول** عن **جنس الظلم**؛ لأنه ناقل عن لزوم طاعة الله، فقد جاء **التحذير التام** من **جنس الإفساد**؛ لأن الإفساد من أدق نواتج الظلم، وهو أول أسباب دمار الحضارات، وإنْ طال بقاؤها في

---

(١-٢) وانظر: فاطر ٢٤، وأرجو مراجعة:

تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ١/ ٧ و١٣٣،

تفسير مجاهد ١/ ٢٤٠، تفسير الطبري ١/ ٢٢٩، ٧/ ١٩٢، ١٤/ ١٠٣،

تفسير القرطبي ٧/ ٢٥٢، ١٣/ ٧٨وبعدها،

تفسير ابن كثير ١/ ٨٠ وبعدها، ٢/ ٢٤٣وبعدها،

تفسير السعدي ١/ ٢٩٧ و٤٤٠ و٧٦٧وبعدها

الزمان، وامتدت آثارها في المكان، قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ هود ١١٧(١)

ثم جاء **الإنذار الكامل** لينبه عموم الأمة إلى أن ظهور **جنس المعاصي** مُؤْذِنٌ بوقوع العقاب في العامة إنْ هي سكتت عن معاصي الخاصة؛ لأن الله تعالى يعجبه من الجماعة المسلمة أن يدل ظاهرها على الطاعة، ويعجبه من الفرد المسلم أن يدل ظاهره وباطنه على الطاعة، ولذلك توعد الله عموم المتواطئين على المعصية بالعقاب العام، فقال ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ الأنفال ٢٥ (٢)

ولما كان **الظلم والعصيان** هما أُس كل سقوط حضاري، فإن منهاج الوحي في صناعة الحضارة صيانتها وحمايتها يدور على **سبيلين هما**:

١) **التغيير الذاتي**، تقوم به الأمة المسلمة في نفسها إعمالاً لسُنَّة الله تعالى

---

(١-٢) تفسير الطبري ١/ ٢٢٩وبعدها، ٧/ ٢٢٥وبعدها، ١٢/ ١٤٠وبعدها،
أحكام القرآن الجَصّاص ٤/ ٣٧٩،
تفسير القرطبي ٧/ ٣٩٣، ٩/ ١١٤، ١٣/ ٣٠٢،
تفسير السعدي ١/ ٣٩٢، تفسير الشنقيطي ٢/ ١٩٨، ٣/ ١٦٣

في الصيانة، لقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد ١١ (١)

٢) **والإعداد الذاتي**، تقوم به الأمة المسلمة في غيرها إعمالاً لسُنَّة الله تعالى في الحماية، لقوله ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ الأنفال ٦٠ (٢)

**فالتغيير واجب عَيْنِي وكِفائي** يلحق الأمة كلها لتواجه به نفسها، كما أن **الإعداد واجب عيني وكفائي** يلحق الأمة كلها لتواجه به غيرها، وبهما معاً يتحقق معنى الصيانة والحماية في حضارة الإسلام.

وكما قضى الله أن يُجْري في الناس **سُنَّة التَّداوُل الحضاري**، فقال ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا

---

(١-٢) تنوير المقباس ١/ ١٥٠-١٥١و٢٠٦، تفسير الثوري ١/ ١٢٠،
تفسير الطبري ١٠/ ٢٤وبعدها، ١٣/ ١٢١،
أحكام القرآن الجَصّاص ٤/ ٢٥٢،
تفسير القرطبي ٣/ ٢٨٢، ٧/ ١٥٧، ٨/ ٣٥وبعدها، ٩/ ٢٩٢وبعدها،
تفسير السعدي ١/ ١٨٦و٣٢٤، تفسير الشنقيطي ٢/ ٢٣٦وبعدها

بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾آل عمران ١٤٠، فقد قضت سُنَّته تعالى أن سلطان الباطل لا يدوم، فقال ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾الإسراء ٨١.

ذلك أن الباطل يحمل في طيّاته ذرات فنائه، قال تعالى﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾الرعد ١٧، وهو ما يفسر لنا قصة التاريخ البشري بتمامه (١)

ولذلك تجلَّت حقيقة استخلاف الله للإنسان في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾البقرة ٣٠، فجاء

---

(١) تنوير المقباس ١/ ٥٧و٢٤٠و٢٧٠، تفسير مجاهد ٢/ ٣٢٧،
تفسير الطبري ٤/ ١٠٥وبعدها، ١٥/ ١٥٢، دقائق التفسير ٢/ ٣١٢،
تفسير القرطبي ٤/ ٢١٨، ١٠/ ٣١٥، تفسير الشنقيطي ٣/ ١٨٠و٣٠٨

ذلك الاستخلاف على نوعين هما:

١) **استخلاف الله العام** لكل أمم الناس في الأرض، وهو المُراد بقوله تعالى ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾هود ٦١.

وهي **الخلافة الكونية** التي قَدَّرها الله ابتداءً، فقال ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ يونس ١٤، فكان هذا النوع من الخلافة أمانة تتولاها كل أمة بحسب ما جاء به نبيها لإمضاء أوامر الله في الحياة.

٢) **واستخلاف الله تعالى الخاص** للأمة المسلمة العاملة بالدين الخاتم، فوصفها سبحانه بقوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾الأنعام ١٦٥، فدلَّ **حذف ﴿فِي ﴾ هنا دون آية سورة يونس على أنه الاستخلاف الأخير في الأرض حتى تقوم الساعة.**

فإنْ تَحَقَّق ذلك **الاستخلاف** بشروطه، تحقَّق موعوده بتمامه، تصديقاً للوعد الإلهي الكامل ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ النور ٥٥.

ولذلك لما تحقَّق عصر الرسالة بذلك النوع من الاستخلاف نزل فيهم قوله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة ٣ (١)

---

(١) وانظر: الأعراف ١٢٧، يونس ٩٨، الأنبياء ١٠٤، قريش ٣، وأرجو مراجعة:
تفسير الطبري ٨/ ١١٤ ،١١/ ٩٣، ١٢/ ٦٢، ١٨/ ١٥٨وبعدها،
تفسير ابن الجوزي ٢/ ٢٨٦وبعدها، تفسير القرطبي ٦/ ٦١وبعدها ، ٩/ ٥٦،
تفسير ابن كثير ٢/ ١٤-١٥، تفسير الشنقيطي ١/ ٢١،
تفسير السعدي ١/ ٢٢٠و٢٨٣و٣٥٩و٣٨٤و٥٧٣

# ٥) السُّنَن الإلهية وصناعة الحضارة

من بالغ حِكَم الله تنبيه أهل الطاعات بأنواع البلاءات، فقرر فيهم **سُنَّة الابتلاء** لئلا يَلِجوا شُبَه التقصير، وحفظ عليهم ضرورات الجمع بين سُبُل الحضارة ومقاصدها، ورغَّبهم في الخير، فقال ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾المائدة ٤٨ (١)

ذلك أن التقصير في فهم مقاصد القرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية الثابتة، والسيرة النبوية المُحَقَّقَة، ومحركات الصراع البشري عَبْر مسيرة التاريخ، هي كلها أسباب لعجزنا الكبير عن تأصيل السُّنن الإلهية في العقل المسلم، بحيث لم نعد ندرك أن فقه التعامل مع السُّنن الإلهية هو من علوم الفروض الحضارية التي يلزم عنها **سلامة القراءة القرآنية للحياة، وفهم طريقة السيرة النبوية في ممارسة الحياة، وقراءة الفقه، مع**

---

(١) وانظر: الأنعام ١١٢، الرعد ١٧، الفرقان ٣١، محمد ٤، الأحزاب ١١، تفسير الطبري ٦/ ٢٧٢، تفسير ابن الجوزي ٢/ ٣٧٣-٣٧٤، تفسير ابن كثير ٢/ ٦٩

**قراءة الواقع، والتَّوَغُّل في درس حركة التاريخ لنرى كيف قامت الأمم ودالت، وتنزيل ذلك كله على الحياة**، وهنا فقط يمكن أن نفهم المقصود الإلهي من **الشِّرعة أي القرآن، والمنهاج أي السُّنَّة** (١) **واستباق الخيرات بالعمل بالقرآن والسُّنَّة.**

فلقد أدت الغفلة عن تناول القرآن كله، وتناول الحياة كلها إلى حالة من العجز عن فهم الحِكَم من منظومة السُّنَن الإلهية، والاتِّعاظ بها، والمغالبة بينها، رغم أننا نردد كثيراً قوله تعالى ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ آل عمران ١٣٧-١٣٨ (٢)

ولذلك فإن انتظار الفرج بلا سعي لن يزيد العَجَزَة إلا سقوطاً، ولقد قضت سنن الله تعالى أن الغَلَبة تكون لمن يتدبر الأخذ بالأسباب بوعي وصلاح؛ لأنه أفضل النجاح، فقال تعالى ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى**

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٦٥وبعدها، تفسير ابن الجوزي ٢/ ٣٧٢وبعدها، تفسير ابن كثير ٢/ ٦٨وبعدها، تفسير الشنقيطي ١/ ٧٦وبعدها

(٢) تفسير الثوري ١/ ٨٠، تفسير الطبري ٤/ ١٠١، أحكام القرآن الجَصّاص ٣/ ١٢٦، تفسير ابن كثير ١/ ٤٠٩وبعدها

ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ الأنبياء ١٠٥- ١٠٦ (١)

فكان تناول الأسباب على صلاح من أعلى رُتَب اتِّباع سُبُل الله في الحياة، ومن هنا ذَمَّ سبحانه القاعدين عن واجب التناول الحضاري، فقال ﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾البقرة ٧٨، أي قراءةً بغير فهم (٢)

وعن **زياد بن لَبيد** قال " أتيت **النبي** ﷺ وهو يُحَدِّث أصحابه وهو يقول " **قد ذهب أوان العلم** " قلت " بأبي وأمي وكيف يذهب أوان العلم، ونحن نقرأ القرآن ونُعَلِّمه أبناءنا، وأبناؤنا يُعلمونه أبناءهم إلى أن تقوم الساعة ؟ " فقال النبي ﷺ" **ثكلتك أمك يا ابن لَبيد، إنْ كنت لأراك من أفقه أهل المدينة، أوَ ليس اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل، ولا ينتفعون منهما بشيء** " (٣) فدلنا النبي ﷺ على

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ١٠٥،تفسير ابن الجوزي ٥/ ٣٩٧، تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٠

(٢) تفسير الطبري ١/ ٣٧٤ وبعدها، شرح العقيدة الطحاوية ٥١٧، مجموع الفتاوى ابن تيمية ١٣/ ٢٨٦، ١٦/ ١٢و٤١٥، ١٧/ ٤٣٢وبعدها، ٢٥/ ١٧٠وبعدها

(٣) المستدرك الحاكم ٦٥٠٠ وقال " صحيح على شرط الشيخين ".

أن مجرد الوعي بلا سعي لا يحقق المقصود من الدين، ولا يصلح الدنيا.

وإذا كان تناول الأسباب قد ينجح في قيام حضارة، فإن مجرد الأخذ بالأسباب لن يمنحها نعمة الدوام، قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾الأنعام ١٢٨ (١)

ذلك أن الفساد لما تَخَلَّلها لم يكن من المعقول أن تتم لها عناصر البقاء وإن حازت عوامل الظهور، وتأمل معي قول الله ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾يونس ٨٣ (٢)

من أجل ذلك جاء تَزحْزُح أهل الإسلام عن شيء من عناصر البقاء

---

(١) وانظر: الأعراف ٣٤، التوبة ٦٩، النحل ٢٦، الزمر ٨، الحشر ٢، غافر ٢١، المرسلات ٤٦، تفسير الطبري ٨/ ٣٣وبعدها، تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٢، تفسير ابن الجوزي ٣/ ١٢٣-١٢٤

(٢) وانظر: القصص ٧٦، فصلت ١٥، تفسير الطبري ١١/ ١٥١، تفسير ابن الجوزي ٤/ ٥٣، تفسير القرطبي ٨/ ٣٧٠، تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٣

مؤْذِناً بتراجع قوتهم الحضارية إلى حد الانسحاب والأُفول من خارطة الأقوياء، إعمالاً لسُنَّة الله تعالى في **الالتزام والتغيير المقترن بسببه** عند قوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ الأنفال ٥٣-٥٤ (١)

وكان من خَفِي **سُنَن البقاء في منظومة القيام والانهيار** أن الله يعاقب الأمم بذنوب الأفراد إذا سكتت الجماعة عن أطْرِهم على الحق، فقال ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ الأنفال ٢٥، ثم يستبدل بهم إنْ اصطلحوا على الفساد ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ محمد ٣٨ (١)

---

(١) وانظر: الأنعام ٦، الأعراف ٧٤، الروم ٦-٩، تفسير ابن الجوزي ٣/ ٣٧٠، تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٣، فيض القدير المُناوي ٤/ ٧٢، الأحقاف ٢٦

(١) تفسير الثوري ١/ ١١٨، تفسير الطبري ٩/ ٢١٨،تفسير ابن الجوزي ٣/ ٣٤١، ٧/ ٤١٥وبعدها، تفسير القرطبي ٧/ ١٥٧، ١٦/ ٢٥٨

ولذلك فإن الفكر الرشيد لا يقعد عند التجريد، وإنما ينهض إلى الترشيد، فيقرأ الوحي ويقرأ الحياة، ويوجه الحركة في الحياة كما يوجه الحياة بالحركة وَفْق مرادات الله.

ولما كان الوحي هو الصورة المُثْلَى لعمارة الحياة، **فإن** أفضل الطرق لفهم الحياة هو الوحي نفسه؛ لأنه سبيل الدلالة على سنن الله تعالى، وشروط تناولها، وآليّات فهمها، وطرق التعامل معها، بقدر ما إنه يُبْقِي معيار الصلاح مرهوناً باتِّباعها.

ولما كانت عناصر الحضارة في المعمار الإلهي للحياة ثلاثة هي: **وحي ومؤمن وأسباب، فإن** وضوح هذه المنظومة السُنَنِيَّة في العقل المسلم مؤذن بقيام حضارته وصلاحها ودوامها.

إن ذلك التفاعل الناهض بين سُّنن الله والحياة هو ثمرة التقاء الغيب بالشهادة لتحقيق المراد الإلهي ﴿ **ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا** ﴾ المائدة ٣ (١)

---

(١) تفسير ابن الجوزي ٢/ ٢٨٦وبعدها، تفسير القرطبي ٦/ ٦١وبعدها، تفسير ابن كثير ٢/ ١٤-١٥

وهو ذات الفارق الموضوعي بين حضارة الوحي وكل الحضارات الوضعية، التي هي مجرد نَمَط حُوشِي للحياة، نشأ من تفاعل العقل مع الأسباب بعيداً عن هَدْي الوحي، فأنشأ عمارة ناقصة وقابلة للزوال.

وهو ذات الحال الذي ساد العقل من خلال: **الحتمية الوضعية** عند **جيورج هيجل ١٨٧١م** التي تري تطور الحياة باتجاه العقل الكلي، وحتمية **توماس مالتوس ١٨٣٤م** التي تتوقع انهيار الحياة تحت ضغط زيادة السكان والإنفاق، وحتمية **كارل ماركس ١٨٨٣م** التي تتوقع تطور العالم نحو زوال الملكية والدولة بفعل الصراع الطبقي.

ولقد أخبرنا القرآن عن حضارات ظهرت في غيبة الوحي، وسجل التاريخ ذلك في: **بابل ومصر وآشور وفينيقية وفارس والروم والهند والصين**، ودلَّنا الواقع عليها في **أوربا وأمريكا وآسيا** (١)

ثم قرر القرآن أن حضارة الإسلام نَمَطٌ فريد؛ لأنها تقوم على **مؤمن بالله، ساعٍ لاستثمار الأسباب التي سخرها الله كما أمر الله ليُصلح بها الحياة، عارفاً أنه إنْ أحسن أفلح، وإنْ أساء فعليها، وأن حضارته إنما هي منظومة عقل وروح وجسد، تعمل معاً في تعاوُن وتكامُل، لا تعانُد**

---

(١) وانظر: الأعراف ٧٤، الأنعام ٦، يونس ٨٣ و٨٨، الروم ٦-٩، الفجر ٦-١٣

**وتَصارُع ، وفي تَوَحُّد واتِّصال، لا تبعيض وانفصال.**

إن غياب تلك الرؤية قد أفقد الأبنية الوضعية للحضارة أصالة النبع وصفاء المصب، فعُنِيَت بإخراج بشر بلا ألم أو حياء؛ لأن الألم في نظرهم يمنع اللذة، ولأن الحياء يُقَيِّد التحررية (١)

في الوقت الذي أخرج الإسلام للحياة إنساناً مهيأً للسعي، فقال تعالى﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾البلد ٤ (٢) وأعَدَّه لِمحَن التكليف والابتلاء، فقال تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾البقرة ١٥٥ (٣)

ثم ضبط حريته بالرُّشد في الوعي، والسَّداد في السعي على منهاج الحق، فقال تعالى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ

---

(١) وانظر: آل عمران ١٨٥، الأنعام ١٢٨، يونس ٧٠، النحل ٥٥، الزُّمَر ٨، الأحقاف ٢٠، محمد ١٢، المرسلات ٤٦

(٢) تفسير الطبري ٣٠/ ١٩٦، الكشاف ٤/ ٢٥٥، تفسير ابن الجوزي ٩/ ١٢٩، تفسير القرطبي ٢٠/ ٦٣، تفسير ابن كثير ٤/ ٥٤٧

(٣) تفسير القرطبي ٢/ ١٥٧و١٧٣، تفسير ابن كثير ١/ ٢٠٣

**لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾** البقرة ٢٥٦.

وحَثَّه على التَّحَلِّي بأخلاق الحياء، فقال رسول الله ﷺ " **الحياء خير كله** " (١) ولذلك حَذَّر ﷺ من ترك **الحياء**، فكان مما قال " **إذا لم تستحي فاصنع ما شئت** " (٢)

ومن هنا عجزت حضارة المادة عن فهم حضارة الروح بالقَدْر الذي عجز فيلسوف مثل **برتراند راسل ١٩٧٠م** عن فهم خُلُق **الإيثار**، باعتباره واحداً من أهم رُتَب الأخلاق في الإسلام، فتناوله بقوله " إن الناس يدعون إلى التضحية على رجاء أنهم سيأخذون منها بالقدر القريب، لكن الواقع يشير إلى أنهم **إمّا** أن يفشلوا في تعلُّم هذا الدرس، **وإمّا** أنهم سيشعرون بالإثم حين يطالبون الآخرين بالعدل، **وإمّا** أن يصلوا في التضحية إلى حدٍ غير معقول، وعندئذ لا تخلو نفوسهم من الحقد على الذين آثروهم على أنفسهم، وأكبر الظن أنهم سيسمحون لحب النفس أن يرتد إليهم متنكراً في صورة المطالبة بالشكر، وعلى كل حال فإن تضحية النفس لا يمكن أن تكون مذهباً صحيحاً لأنها غير قابلة للتعميم، ولذلك فـإن من المكروه أن تُعَلِّم الناس الباطل على أنـه

---

(١) صحيح مسلم ٣٧ (٢) صحيح ابن حبان ٦٠٧

وسيلة إلى الفضيلة؛ لأنه إذا انكشف الباطل تلاشت الفضيلة " (١)

وهكذا لم يتمكن **برتراند راسل** من تَبَيُّن الخيط الفاصل بين **الأَثَرة والإيثار**، وخلط بين طبيعة الباطل وطبيعة الفضيلة، كما تخلط الحضارات الوضعية دائماً بين **قيمة الحرية وفوضى التحرُّر**.

**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.**

---

(١) في التربية برتراند راسل ١٠٦

**د.عبد الحميد محمود غانم**

**Agh_1952@yahoo.com**

**Ghanem1952@gmail.com**

**********